

## ﴿ رسالة جمع النفائس ، لتحسين المدارس ﴾

يقول الذين أرسلوا اليها هذه الرسالة ان السيد عثمان بن عبدالله بن عقيل كتبها ليقاوم بها نهضة المسلمين الحديثة لانشاء المدارس وطلبوا منا ان نبين لهم رأينا فيها كما ذكرنا ذلك في الجزء الحادي عشر . وقد تصفحنا معظم الرسالة فظهر لنا ان كاتبها قد كتب ما يعتقد انه النافع كما هو ظننا في سائر مكاتباته وان لم يقصد تثبيت المسلمين عما هو نافع لهم ارضاء للحكام أو تغير الحكام ولكن الذين فهموا منها تثبيت المسلمين عما ينفعهم معذورون ولا يسوغ لنا ان نقول انهم متجاهلون ،

الرسالة مؤلفة من ثلاثة فصول اولها في العلم والتعليم والمدرسة وبذل المال لهذا الامر ونتيجة العلم وقد جاء في ذلك فوائد ونصائح لا بأس بها وان كان فيما استدلل به احاديث ضعاف لا يحتاج بمثلا ولا نظيل في ذلك لما جرى عليه المؤلفون من التساهل في ايراد مثل هذه الاحاديث في فضائل الاعمال ولا سيما الغزالي رحمه الله تعالى ورأيت يذكر في هذا الفصل كثيره السلف الصالح ويحث على اتباعه ويعد من ذلك قراءة رسائل وكتب احمد بن زين وسالم بن سمير وعبدالله بن علوي الحداد وغيرهم ممن ليسوا من سلف الامة وهم اهل القرون الثلاثة على المشهور فكانه يهد المتأخرين من اهل حضر موت وغيرهم من السلف ولا أدري ما هي مزيتهم على علماء هذا العصر في الهند و مصر وتونس . وعندني انه لا يستدبرأيه في الكتب النافعة ولا في طريقة التدريس . والفصل الثاني عشرة اسطر في الاتفاق على العمل وبذل المال له ولا بأس به واما الفصل الثالث فهو الذي يثبط همة من تقاه بالقبول على علاقته لانه ينفر المسلمين من كل ما عليه الاجانب في علومهم وأعمالهم الدنيوية التي بها صاروا اقوى وأعز من المسلمين حتى ان دولة صغيرة في شمال أوروبا تستولي على أكثر من ثلاثين ألف مسلم في جنوب آسيا وتتصرف فيهم تصرف السيد في عميده الضعفاء ولو عملت الدولة العثمانية بمثل هذه الآراء لاستولى عليها الاجانب من زمن بعيد ولم تبق المسلمين حكومة مستقلة

ومن بلايا تناقض هؤلاء المقلدين انهم يجرمون الاستدلال بالكتاب والسنة على من أم أهل له ويبيحونه لأنفسهم مع اعترافهم بأنه ليسوا من أهله ومن ذلك استدلالهم بحديث ابن عمر « من تشبه بقوم فهو منهم » على تحريم كل شيء نافع سبقتا اليه أوروبا والحديث لا يدل على ذلك على ان سنده ضعيف عند رواته وهم احمدوا بوداودو الطبراني في الكبير ، وتصحيح ابن حبان له لا يستدبه لتساوله في التصحيح ومعناه ان من تكلف ان يكون شبيها بقوم فان التكليف يصير خلقا بعد تكرار العمل فيصير بذلك من القوم فيما تشبه بهم فيه فان تشبه بهم في الكتب من أمور الصناعة صار صناعتا مثلهم وإن تشبه بهم في الاعمال الحربية صار كواحد منهم في ذلك ، وان تشبه بهم في كل شيء صار مثلهم في كل شيء ولكنه اذا تشبه بهم في بعض الأزياء او العادات لا يصير منهم في أمور الصناعة أو الحرب أو الدين واذا تشبه بهم في أعمال الدين فقط لا يصير منهم في السياسة أو الإدارة ولا في الصناعة والزراعة . فالمسلمون في العراق موافقون لمسلمي مصر في الدين لا متشبهون وهم ليسوا مثلهم في اتقان الزراعة فن الجبل الفاضح ان يقال ان من تشبه بآخر في شيء يصير مثله في غيره ، ويتفرع على هذا اتنا نحن المسلمين إذا تشبهنا بالافرنج في الأمور الحربية والسياسة والصحية وطرق الكسب فاننا لانكون معدودين منهم في دينهم وان في بلادنا من هم موافقون لهم في دينهم وكثير من عاداتهم وهم مع ذلك ليسوا مثلهم ولا يعدون منهم في الأمور السياسية والحربية مثلاً .

وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية والطياصة الكسروية ( من لباس المجوس ) . ولما أخبره سلمان الفارسي ( رض ) ان المجوس يحضرون الخنادق حول بلادهم اذا هاجها العدو أعجبه ذلك وأمر بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب وعمل فيه بنفسه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم . فهذا البيان يظهر خطأ السيد عثمان بن عجيل في منعه أن يكون في مدارس المسلمين شيء ما يشبه ما في مدارس الاجانب وخطأ ما أطالت به مجلة « دين ومعيشة » الروسية في بعض المسائل التي جعلت تكأنها فيها حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » وهذه المدارس النظامية في مصر والآستانة والشام على طراز

المدارس الأجنبية ولم ينكر ذلك أحد من العلماء في هذه البلاد وما أظن أن السيد عثمان يعد نفسه في طبقة علماء الأزهر

وقد أورد السيد عثمان في هذا المقام حديثاً آخر وهو « من أحب قوماً حشر معهم » وهذا الحديث أوردته الحاكم في المستدرک بلا سند فلا يحتاج به ولو كان الرجل طاماً بالحديث لاورد ما صح بمعناه وهو حديث أنس عند الشيخين « المرء مع من أحب » وفي المعنى حديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال » رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وهو ضعيف ولكن حسنه الترمذي وأورده ابن الجوزي في الموضوعات . والمراد بالحب هنا ما يحمل المحب أن يتقرب الي من يحبه ويطيعه ويقتدي به ، وما كل نوع من أنواع الحب يحمل على ذلك وقد أباح تعالى للمسلم أن يتزوج باليهودية والنصرانية والزواج بحب زوجه فلو كان معنى الحديث ان كل محب يكون مع من أحببه في الدنيا والآخرة لاستلزمت اباحة نكاح الكفائية كفر المسلم الذي يتمتع بهذا المباح ولا استلزم ذلك الترجيح بلامرجح فيما اذا أحب كل من هذين الزوجين الآخر كما هو الغالب وهو محال . وأبلغ من ذلك ان الله تعالى قال في خطاب المؤمنين مع اليهود الذين كانوا أشد الناس عداوة لهم ( ٣ : ١١٩ ها أتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ) فراجع تفسير الآية في ص ٨٨ ج ٤ تفسير من القرآن الحكيم

ومع هذا كله تقول ان الذين ينظمون مدارسهم على طريقة الاوربيين ويتعلمون علومهم لا يقتضي ذلك أن يحبهم بل نرى من المتعلمين في أوربا من هم أشد تعصبا من غيرهم وقد ذكرت هذا لبعض الممانيين هنا ( في الآستانة ) فقال والمتعلمون منا على الطريقة الاوربية كذلك . فالسيد عثمان ليس مختبرا ولا عارفا بهذه المسائل وقد علمت ان الحديثين اللذين أوردتهما لا يدلان على مراده إن قلنا بأنه يحتاج بهما، وما كتبه ضار جدا وان أراد به النفع بحسب اجتهاده وما هو بأهل للاجتهاد ساعه الله تعالى

ومن مفاوته انه بعد أن استدلل بالحديثين على ما لا يدلان عليه لقلته بضاعته في العربية على كونها بضاعة مزجاة - شرع يحذر ترك قراءة كتب السلف الصالحين والاستعاضة

عنها بقراءة كتب التاريخ والجرائد، وذكر من مضارها انها تورث العقائد الفاسدة ودعوى الاجتهاد والاخذ من الكتاب والسنة . واذا جاز لئله أن يأخذ من الكتاب والسنة فعلى من يجمع ذلك ؟ واتي أقل شيئا من كلامه بنصه لئلا يتوهم بعض قراء المنار اننا نرد على عالم مؤلف أخطأ فكبرنا خطاه أو بالنسبة في استهجانه . انه حصر عيوب المكاتب والمدارس في ثلاثة أشياء وذكر الأولين منها وهما في المعنى أمر واحد هو التشبه بالاجانب ثم قال مانصه وصورة رسمه :

« والثالث من تلك الفواقر والخسائر ترك قراءة الكتب التي يقرؤها السلف الصالحون التي يكتسبون منها العلوم النافعة وخشية الله والأعمال الصالحة وتبديل تلك الكتب بكتب التواريخ الخنقة والجرائد المعتقد التي يورث في اللسان اللقطة وفي القلب العقائد الفاسدة وفي الدين الفساهل وتبعية الرخص بل تورث دعوى الاجتهاد المشبه بخرط القتاد ودم التقليد بلا تقييد ودعوى استقلال الاخذ من السنة والقرآن مخالفة لما عليه المفسرون الاعيان فاهي الاكراكة التان تظن انها تسابق الفرسان ومضادا لسيرة السلف الصالحين بل استخفافا بهم بأنواع التنقيص وعنادا بالمكابرة والمغالطة بالأدلة الساقطة » اهـ

ولا يحسن القارىء أننا اخترنا هذه العبارة اختيارا لركاكتها وكثرة غلطها ووضوح دلالتها على مجرد صاحبها من الفنون العربية كلها بل جميع عباراته كذلك وهو مع هذا يستنبط الاحكام من الآيات والاحاديث فيحرم على الناس ما أحل الله لهم ويجعل لهم ما حرم الله عليهم ولا سيما القول في الدين بغير علم ثم ينكر على العلماء الراسخين مثل هذا الاستدلال !!

هذا — واتنا فنصح لأولئك الأبرار الاخيار الذين ينشئون المدارس أن لا يلتفتوا الى هذه الرسالة ولا الى شيء من رسائل هذا الرجل وليختاروا لمدارسهم المعلمين الا كفاء الذين يجمعون لهم بين علم الدين وما يلزم لهم من علوم الدنيا وان يكون لسان حالهم ومقالمهم هو لسان القائلين « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وثنا عذاب النار » أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب »

## الفصل الخامس عشر (١١)

( بيت خديجة بعد الزواج )

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فأثقت اليه هذا الامين بكل ماملك ولم يرها أن الكرم المستعجم في سببها سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضيف والمائل فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشعيرة الكاذبة على المال الفاني بل كانت قد خافت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفة بها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمرا ينافي أمره ، أو رأيا يفاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمانا ، فقصدته الايام ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أهمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلعة المال .

كانت تلك البلاد احيانا تصاب بمر بل كل بلاد العالم لا تسلم من المر على الدوام فمساعدة المومنين في زمن المر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتنطب على شياطين

(\*) تابع لافي (ص ١١٥٤٩) من سيرة السيدة خديجة ، وقد كان كاتب هذه السيرة السيد عبد الحميد الزهراوي اضطر الى ارجاء الكتابة لاعماله السياسية الكثيرة في مجلس الامة

الشكوك والاهام التي تنهى عن الاتحاق خشية الاملاق أما سيدتنا فكانت ترى إتفاق زوجها ومساعدته للمصرين وأخذته بيد العاطلين من جملة الزايا العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعيد له ، وعائنا بمثل ما نبث به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتجا بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة ، أبناء المجد الأبدي ، أبناء المجد السرمدي ، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة براها من استهدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يترى كالايتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبو طالب » ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده مخفيًا عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علياً الذي صار الامام أبالائمة ، وبدر سماء السيادة في الامة

كانت تربية علي في البيت من جملة المكتوب للسيدة « خديجة » من

حسن الحظ فان الغيب كان يمدده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم ، ومن أين كانت

تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يمش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعدّه القيب ختنا كريماً وبعبارة صالحة لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وأنى يخطر في بالها أنها لما كانت تربي هي وزوجها جدا لعمرة تتصل بهذا البيت سيمدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الأرض دهوراً طويلاً عالية المنار ، عظيمة الشأن

نم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نم ! نم ! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيدهنا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعمة بتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لأهله نفوساً لا تعرف الاستئثار ، بل تراه من المار والشار ، لاسيما اذا بنس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشيرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السيد مسدداً للارواح ، كما كان مسدداً للشباب ، ويعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهدياً لا كرم الآداب وأعلاماً فان علياً المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الاكبر الخليق ان يكون مثالاً مقدس وزكاه النفس ، هو مجمع المال والملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى فما كرم هذا البيت السيد وما أعظم بر كاته ! قد رأينا الامين يجد فيه

مجالاً للتخفيف عن المتعبين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد الاقتصاد  
 صدوراً رحيمة ، وأيدي ميسرة ، ولديه خيم الوجود والسخاء ، كإخيم العدل  
 والوفاء ، ومنه اشترت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من  
 بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى ؟

## الفصل السادس عشر

( العمل الروحي )

أشر فإلا الآن على بحر كثيرة لجبهه ، صبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا  
 البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في ثمراته ، ولا يسو  
 ثوب الهداية رأس المهمل الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله  
 في الجهر والتجوى  
 هنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه  
 وحدته ورسمه ، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بطرا كان من  
 دأبه أن يتمد بهض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «جرا» فاهو  
 هذا التمدد وكيف هو ، وما الذي ساق نفسه اليه ، وأي دين فرضه عليه ؟  
 هذا هو النبا العظيم الذي تمسك بنا المقول المستقلة اذ تسمعه ولا  
 تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ، واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن  
 نبعد بالتعاري عن سياق السيرة ، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح  
 ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء  
 أكثر ممن يسرد الاخبار سرداً  
 ان الاديان كلها رسمت أعمالاً اسمها عبادات ولكن يعمل السيدة

«خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لان دين قومه كانت عبادة عبادة عن تعبد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تمود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يزعمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ كان يمل هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي توجه فيه روحه لقاء باري السموات والارض ومشرف مكة وسائق قوس العرب اذ ذاك اليها، ولم يكن مقيا أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لقتنا يكاف به شرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام الساتين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكاف به شرح التاريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد الحمدي في « حراء » فكاف به كتاب سيرة السيدة « خديجة »

العبادة لا تشني الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط

هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم قد سمنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نعرف بالروح ولو قليلا فاذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن نعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهي كل امرئ لان كل واحد منا يتخطر في باه هذه المسألة :

## ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الدين بمدى نظرم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة وأحد الاصول والاسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكمله هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا صرسي سنية العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يتبدى مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، إذ لا براهين قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه، ولكن إذا عزت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يحرمه الا قليل تؤمن فيهم الخيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قدمت آيات، فإذا حالت دونها الحجب لج العقل في عبارات أو محاميات، وإذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات انها لمن تأمل مراتب وصفوف، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر، واختلاف القوى وآثارها، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ملاح له من وجود ووطن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزد عنها الا بمدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا بقول أنا ويقال عنه هو وان هذا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحرار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسمي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بمحت كالباحثين ، وحررت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما أذهما على القلب من حيرة عقبا ما بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسني وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأنني وليد هذه الساعة ، لاني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الا جوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والألوان ، ولم أكن أشعر بلاثماني ومؤلماتي ، فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأني كان ابتهاجي بزواجر هذه الرقاه ، وزواجر هذه الفراء . . . ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبناتج نقوش ، وترتيب صنوف ، وحرركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يا فاطميا يا باري ، يا منصور ولك الحمد ، أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المراتي ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه  
هذا فأين ذهب ابصاري وسمي بين ذنك الابصار والسمع اللذين كانا  
أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتباني الآن وأنا منذ كر أن  
هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفامن المرات فما هذا الاحتجاب ثم  
الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا ؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب ا  
لعلها لا تسمعي ، أو لعلها لا اسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل ،  
وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسي  
وعن احتجابه ، ألا يهمني أن أصرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات  
ورقها ثم يموت ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا أم أمره كأمر  
هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يخب عنها ثم يموت اليها وهو لا يزول أبدا ،  
كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص  
والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض . كلا سائل ، ثم كلا سائل ،  
رفعت رأسي الى السماء فألقيت بواهي ولا مجيب ، وأهويت بهالي

الارض فألقيت بواهي ولا مجيب ا

فضاه أمامي ، لأصرف له ساحلا وحدا ، تارة يفيض نورا ، وأخرى  
يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم  
الاسماء وضمورها له لا تشرح كتبها ولا تؤذن بدلالة كافية

تلاعب فيه السمات لعلها ناسية أن الامر جده وما هو بالهزل والعب ،  
وتتناغم في الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دماغا يأخذ بمخط  
منها ولعل حسابها خائب ا

يني وبين كل ما هو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور  
البارع، فهل بزغ هذا النور لا عرفها أم لتعرفني وهل كانت لي أم كنت لها أم كنا  
جميعاً لهذا النور أم كان هو لنا؟ ولكنني أعرف يا نوراني لولاك لما عرفت شيئاً  
سلام عليك أيها النور! يا حامل لعممة المعرفة البناء وشكراً لمن تسبح  
أيها النور بجلاله، وتهدينا إلى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست أدري كيف عرفت، قد نقشت  
السماوات والأرض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي، فهذا اليمُّ  
الذي يسبح الآن أمام فرقتي أصبح لاشيء عندي على أنساعه لأنه محدود  
وهذه الشمس العظيمة التي بدأت بزغ هذه الساعة قد عدت صغيرة في  
عيني لأنني احطت بها، وهذه الأرض التي أراها كسريري قد تلاشت  
في نظري إذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي  
لا ساحل له، أدركت في هذه الساعة أن هذه الأشياء كلها عظم حجمها  
فهي كالصغر بالنسبة إلى ما لا يتناهي، فطمت أن ليس فيما أحاط به حسي  
ما يدفع عن فكري عطشه

رائني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها أنها كلها مسخرة لنا وما  
نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا أكرم معنى منها؟  
تركت حيرتي ههنا والتفت إلى هذه الشجيرات التي أراها تهزين  
كمراس الانس وسألتها فلم تجب أو لم أفهم حقيقتها، وانثيت إلى هذه  
البيامات الراقصة باعنائها فسألتها فلم تجب أو لم أفهم هديتها، لكنني  
استأنست بهذه وتلك أكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق بخالط منها  
الجنان، ولا حركة لها إلا على يد الإنسان، وطال أنسي بهذه الخضرة

الترنحات، والورق المنضيات، حتى كدت أفتقه حديثها، وأفسر تبيانها،  
هذه ذكرتي بمعنى الحياة وأعادتي الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها  
الهدى الى ما أشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسبي وفكري في  
هذه العوالم المحدودة .. أياها ناجيت، وكلامها وعيت، فهي التي حدثتني  
أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك، وفي هذه الذرة  
الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد  
من ألوف ألوف ألوف الالوف، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست  
كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد  
وضمها لانزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضمها تزول  
الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه  
الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجال الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قار في ذرات  
قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه، وهذا الرأي الذي وقفت  
عليه، حيرني من هذه الذرات أن تسمع صور السموات والارض وصور  
أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة  
التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال  
هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات  
رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا الرأي اذ قصاره

أني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسم الأشياء لأنحصى مع أنني انما أبني أن أعرف ما هو ذلك الشيء ، الصغير مبناه جداً جداً العظيم مبناه جداً جداً ؟ ما هو ذلك الشيء ، الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركاً حساساً يحيط بالسموات والأرض ويتغيره يتبدو هذا الجسم زوايا صامتة صابراً تحت الأقدام ؟ ما هي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في إحاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاماً آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وإن كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة تنزولاً بأسرع من إبع البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخيل وجودها من الاحتجابات ؟ محارات بمد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، إذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالأمثال أن حقائق الأشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها ؛ فهذا النور الذي يملأ الفضاء لا نعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصاراتنا أنا عرفنا سببها في هذا الفضاء ، لا يسندها عمد ، ولا يعترها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لا تخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ما هو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئاً من ذلك بالجلادية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى ما نعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فإذا حللتها اتبينا إلى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل هي الأمهات ثم هي تنتهي إلى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئاً .  
المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا ، ولكن لهذه المشاهدة عاجزة

من أن ترىنا الاشياء كما هي، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا الا كصباح بسيط يشتمل ساعات ونظني ساعات، وما هي الا مجتم كرة مما يلعب بها اللاعبون ا على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه، فقد نرى واحداً وهو متعدد، وبسيطاً وهو متركب، وساكناً وهو متحرك، وصغيراً وهو كبير، حتى نصل الى ما هو صغير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتمدنا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية اى ما مساعدة . . . بهذه الآلات استطنا أن نرى أنواعاً من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهارير . ولطنا سنهتدي الى ما يرىنا أصغر من تلك الصنائر . ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما نعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالآلات تبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهما بلغتها فما اكرمك يا عيني علي ا أنت أنت كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريبها لاني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لا تزين كل شيء ولا تزين شيئاً مما ترىنه على وضعه وحقيقته فاضطرت ان أقبس وجودي على وجود غيري . . . لا جرم ان لي حقيقة مسترة عنك وراء وجودي الجسدي الذي تشاهدينه كما ان وراء النور حقائق مسترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المسترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة المظلمة التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده، ولا بد لتشكنا وتوعدنا من فيض تخصيصه وجوده... هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها منه صدرت، وله العلم الازلي الابدی لان العلوم التي نهدىها من فضله أنت، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت... هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة... هي حقيقة البارئ المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حي

مسيح بصير مرید وجعل حجاب هذا الهيكل البشري  
أصبحت لا أرتاب في أن الحقيقة المظلمة هي التي تهدينا بآثارها  
وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه، ولكن لشدة ظهورها الذي قديما دل  
البطون ربما تخفى، فاذنطلب معرفة النفس نظير آياتها المظلمة فسبحان الله  
من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روعي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني  
جولي بكنها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لاني لم أعرف  
من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التي أماني  
وليس فيما أماني شيء يجمع فيه ما يجمع هذه الروح . وقد حاولت كما  
يفعله بعضهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه  
المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمع عنه كثيراً لتذكره  
النظام الشمسي وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم يتم هي به

فما نفسنا او روحنا الا جاذبية النوع و كهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهياكل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكواثر كلها من اصل لا يرى ولم تفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا ضمنية ، والتجربة فيه هادية امينة ، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتعلم بها ان لها شؤوننا غريبة جدا فوق المهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحانه الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات المضلية والعظمية والمصبية نحن شاهدنا من هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن نفوسهم الرب وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز القائي اسبابا جليلة ، غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون ان هذه الاسماء تحمل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمنا سمنا لا يستطيع الرب معه البقاء ان اشخاصا يشقون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تحليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم فباء جبا ما هو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص ؟

حالة المنوم تنوينا منطيسيا هي من الالة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكيفية ، وقد القيود الحسية ، وعمله الاعمال المظيمة من غير حركة يديها او واسطة ياتها !

هذا حديث نفسي وخلاصة ما ظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو  
ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصينا منه  
عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الهي السميع البصير المرید  
المستمد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان  
وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق  
ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها  
وعلى نسبة شوقها تكون رتبها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم  
المثال والعيان الذي دفنها اليه شوقها الى الظهور



كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا «خديجة» من اعلى الارواح ،  
وكان شوقها ازكي شوق واقدس ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها  
ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حازت زمنا في هذا الامر ، ولعلها  
قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود  
ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟  
وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ،  
ألا يمكن العلم بالناظر مع انه غير متشخص ؟  
هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح الملوحة التي كان مظهرها وبيتها  
الصوري في بيت «خديجة» ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت  
الوجود الاعلى

ولعلها بثت من ان تجدد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها  
الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكل سمع لأنها تريد أن ترى وتسمع التي إليه  
 طارت شوقاً ولذلك رأينا «محمدًا» ( صلى الله عليه وسلم ) قد حبيت إليه  
 الخلوة والافتراء ولا سيما إذ شارف الأربعين من سنه وكان لغار «حراء»  
 الحظ من هذه الروح الحائمة على حبسها وطيب شوقها  
 من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك النار  
 ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود  
 المطلوب بقوله : رباه ارباه ! كيف الوصول إلى حضراتك؟ كيف السبيل  
 إلى مشاهدات تجلياتك؟ إليك أيها المولى من مزيد حي قياسي وقمودي،  
 وركوعي وسجودي، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي، وفرط ولوعي،  
 رحماك رحماك ياربني ا كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله، وانت انت  
 مطاوبني وانت انت ذو الكرم والجود!



على هذا المثال كانت حاله، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به  
 ياله، وقد فهم القرّيون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوم القديسة  
 وأما البعيدون عن هذا الشوق فيمجربون وينكرون، وليتهم يتذكرون  
 عن الناس وتدلّهم بهذه التنيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة  
 عليها، ولا يجدون الطمأنينة لديها، هذه الحن والتدلّجات أفضى بالمعجب لعمر  
 الحق لو كانوا يعقلون . وأما اعتماد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب  
 من حضرة من لا تدركه الأبصار فسمي وراء مبتغى جليل .  
 العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولا رباب  
 الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات الفتونين بالمحسوسات

فسي أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها واتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في قلبها ولا تنف همهم أمام حزن في طريقها كانت السيدة « خديجة » شهيدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى، والحقيقة الكبرى، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوايح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له.. كانت قد عرفت أن هذا الفارغ في « حراء » الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية، والشوق الى الحضرات الربانية. فكانت تبارك على هذا الفارغ الفارغ وتسال الله أن يملأه معالي وبركات وقد اجاب الله تعالى كرمه سؤلها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتمجياتهم ومحامدهم . وكما قد ترجمت قرائع الشعراء عن احتراماتهم وتكريمتهم لهذا الفارغ أو لهذا المطمع الذي فاق بدره البدر، قال قائل منهم :

سلامٌ عليك حراء الشير      أمطلع ذلك الضياء العظيم  
سلامٌ فؤاد ذكور شكور      بقدر الذي قد صحبت عليم

\*\*\*

لأنت يتيمة عهد الوطن      فتيك أضاء السراج المنير  
بذكراك يلقى الفؤاد السكن      فذكراك ذكري عطاء كبير